الفصل السادس

الغزو العسكري الإيطالي لليبيا و بداية حركة الجهاد

1911 — 1915

- المبحث الأول : ليبيا عشية الغزو الإيطالي
- المبحث الثاني : الإنذار الإيطالي للحكومة العثمانية بالتخلي عن ليبيا
- المبحث الثالث : بداية الغزو الإيطالي لليبيا و حركة المقاومة 1911 - 1913
- المبحث الرابع : حملة مياني على فزان و معارك الجنوب و المنطقة الشرقية خلال 1913 - 1914
- المبحث الخامس : معركة القرضابية ، أسبابها ، أحداثها ، نتائجها

المبحث الأول

ليبيا عشية الغزو الإيطالي

كانت ليبيا عشية الغزو الإيطالي لها، تؤلف مثل غيرها من الأقطار العربية، إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية المتهالكة آنذاك (رجل أوروبا المريض)، وتعرف بولاية طرابلس الغرب بما فيها فزان، و كان يحكم هذه الولاية، وال عثماني يلقب بالباشا، يعينه السلطان، لينوب عنه في حكمها، يساعده في ذلك الحامية العثمانية والديوان، وقد جري تقسيمها إلى أربع متصرفيات تضم عشرين قائمقامية ومديرية ومنذ عام 1879 م، أصبحت برقة متصرفية مستقلة تضم خمس قائمقاميات يحكمها متصرف معين من قبل السلطان وهو المسؤول مباشرة أمام حكومة استانبول، وكان لكل من ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية برقة، ممثلون في مجلس المبعوثان (مجلس النواب).

بلغ عدد سكان ليبيا عام 1911، نحو مليون نسمة في حين كانت الجالية الإيطالية تقدر في ذات العام بحوالي 1,100 نسمة. لقد أهملت حكومة استانبول، وسائل الدفاع العسكري في ليبيا و حتى العدد القليل الذي كان موجوداً من الأسلحة كان عبارة عن مدافع وبنادق قديمة، وحصون عتيقة لا تصمد أمام أي معتد. ولم تكن القوات العثمانية المتمثلة في الحامية العثمانية، تزيد على أربعة ألاف جندي موزعين على مختلف المدن والقرى والسواحل للبلاد، و كانت تلك الحامية أحياناً،مصدر قلق وفوضى أكثر منها للحفاظ على الأمن و الاستقرار.

اعتمدت حياة الليبيين في تلك الفترة على الزراعة التقليدية فكانت أهم منتجاتهم القمح والشعير خاصة في مناطق مسلاته، ترهونة، جبل نفوسة وأودية ورفله، بالإضافة إلى أشجار الزيتون والتين والنخيل والمقاتى والخضروات.

كذلك مارس بعض الليبيون حياة الرعي ومن أهم حيواناتهم: الإبل، الضان، الماعز التي كانت تربي بكثرة، الأبقار، الخيل والحمير، بالإضافة إلى صيد الإسفنج الذي كان يلعب دوراً كبير الأهمية بالنسبة للتجارة الليبية وصيد الأسماك.

أما عن التجارة فهي تنقسم إلى قسمين:- التجارة الداخلية وتتمثل في أسواق القرى والمدن و مواد الاستهلاك المحلي، لكن التجارة الخارجية هي التي تمثل إحدى موارد الدولة. وكان هذا النوع من التجارة، له طرقه البرية والبحرية فالطرق البرية كانت متعددة منها طريق، يربط درنة بالأراضي المصرية، ولم تكن آمنه من غارات القبائل و طريق يربط زواره بالأراضي التونسية، و هذه أيضاً كانت معرضة للنهب و السلب، وهناك طريق يربط غدامس بالسودان عبر غات وهو طريق محفوف بالمخاطر، وطريق آخر، يربط طرابلس الغرب، بأفريقيا الوسطي، ماراً بمرزق وتستغرق رحلته نحو ستة أشهر ذهاباً وإياباً. وطريق يربط بنغازي بوسط أفريقيا. ماراً بواحات أوجله والكفرة ويستغرق ما بين ثمانية إلى عشرة اشهر ذهاباً وإياباً، و هذا الطريق كان أسلم الطرق إلى أفريقيا.

أما الطرق البحرية فكانت من خلال البحر المتوسط عبر الموانى الساحلية الليبية والموانى الأوروبية وقد انتشرت في ليبيا بعض الحرف والصناعات التقليدية كانت تقوم غالباً على المواد الخام الزراعية والحيوانية وأهمها: المنسوجات حيث انتشرت الأنوال اليدوية بكثرة لصناعة الأردية النسائية والجرود وصناعة الأكلمة والبُسط وبيوت الشعر، وصناعة الحصر. كما انتشرت في المدن صناعة تطوير المخمل والجلود، والفخار وطحن الحبوب والتجارة والحدادة وصناعة الحلي والذهب.

واقتصرت الحياة الثقافية على التعليم التقليدي فقد انتشرت بعض المدارس القرآنية والكتاتيب وبعض علوم الدين والمعارف الأخرى التي أسهمت في نشر التعليم وحفظ اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي بالإضافة إلى بعض المدارس العصرية القليلة التي انتشرت في المدن الليبية الكبرى.

هكذا عند وقوع الغزو العسكري الإيطالي على ليبيا في أكتوبر عام 1911م كان لا يزال الإيمان بالدين والتفاني في الدفاع عن الوطن ظاهرة بارزة في حياة الشعب العربي الليبي فأسهمت هذه الظاهرة في زيادة أعداد المشاركين في الجهاد ضد العدو المسيحي الصليبي الغازي وتحويل ذلك إلى حرب شعبية شارك فيها الجميع دفاعا عن الأرض والعرض والمقدسات والحرية [1].

المبحث الثاني

الإنذار الإيطالي للحكومة العثمانية بالتخلي عن ليبيا

لكي تبرر الحكومة الإيطالية عدوانها المسلح على الشعب العربي الليبي الآمن حاولت اختلاق أعذاراً واهية وهذا يتضح من صيغة الإنذار الذي وجهته للحكومة العثمانية يوم 28 سبتمبر 1911م طالبة منها التخلي عن ليبيا واحتوى هذا الإنذار على أن الحكومة الإيطالية كانت تلفت نظر السلطان العثماني إلى ضرورة وضع حد لحالة الفوضى والإهمال التي تركت عليهما ليبيا من جانب الدولة العثمانية، وأن الوقت قد حان لتطور هذه البلاد كبقية بلدان شمال أفريقيا [2]، وإن مقتضيات التمدن العامة تجعل من هذه الأرجاء القريبة من الشواطئ الإيطالية منطقة نفع حياتيه من الدرجة الأولى.

إن مبررات الحكومة الإيطالية بغزو ليبيا كانت على أساس أنه بلد متخلف وأنها قريبة من الشاطئ الإيطالي.

والسؤال: هل التخلف وإن كان ذلك ادعاء باطلاً، فإيطاليا نفسها كانت آنذاك تعاني عجزا واضطرابا اقتصاديا، يكون مبرراً لغزو القوات الإيطالية لليبيا! ثم هل القرب الجغرافي يجيز لها الاحتلال؟

أخذت الحكومة الإيطالية تفتعل الأزمات ضد الدولة العثمانية بدعوى تعرض الأجانب في ليبيا للخطر وبعرقلة مصالحها في ليبيا وسارعت الصحافة الإيطالية تطالب حكومتها بالتدخل العسكري.

المبحث الثالث

بداية الغزو الإيطالي لليبيا وحركة المقاومة 1911- 1913

أولاً: الغزو الإيطالي واحتلال مدن الساحل الليبي

أرسل قائد الأسطول الإيطالي (الأدميرال فيرافيلي) يوم 2 أكتوبر 1911 م، إنذاراً إلى الأمير آلاي أركان حرب (نشأت باشا) العثماني، بصفته قائد عام القوات والموظفين العثمانيين في ليبيا طالبا منه تسليم طرابلس الغرب. غير أن نشأت باشا رفض طلبه ورد عليه بأنه لم يتلق أمرا بذلك من السلطان ورأى تأخير الرد حتى يأتيه الأمر السلطاني (محمد الخامس) إلا أن الأدميرال فيرافيلي رفض التأخير وأنذر القوات العثمانية بالاستسلام خلال أربع وعشرين ساعة.

أثناء فترة هذا الإنذار خرج نشأت باشا بقواته جنوب طرابلس الغرب في منطقة العزيزية وبدأ في إعادة تنظيم قواته واستقبال أفواج المجاهدين الليبيين الذين وفدوا إليه من كل صوب من البلاد للدفاع عن طرابلس.

بدأت قوات الأسطول الإيطالي بمحاصرة مدينة طرابلس بعد ظهر يوم الثالث من أكتوبر 1911 م بواسطة قطع الأسطول الذي بلغت عدد بواخره 114، في حين بلغت تلك القوات نحو أربعين ألفاً بإمكانات هائلة جدا [3]. وقد بدأ يوم 4 من الشهر ذاته القصف المدفعي، وفي اليوم الخامس منه، باشرت تلك القوات في النزول براً على الساحل الطرابلسي. كما نزلت قوات إيطاليةً في طبرق يوم 4 أكتوبر من نفس العام وباشرت نزولها على طول الساحل الليبي خلال الشهر ذاته.

السؤال الذي يرد الآن هو:

- ما موقف القوات العثمانية المتواجدة في ليبيا من هذا الغزو؟

عند بداية الغزو الإيطالي على طرابلس الغرب كانت القوات العثمانية النظامية ((the Turkish Troops المتواجدة في ليبيا، تتمثل في الفرقة الثانية والأربعين المستقلة، وبلغ عدد أفرادها 4,080 رجلاً موزعين في المنطقة الشرقية والغربية من ليبيا.

وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تعلن عن استعدادها للحل السلمي مع الحكومة الإيطالية بشأن ليبيا، نظمت المقاومة من خلال "البناء السياسي والعسكري والإداري العثماني" المتواجدين في ليبيا فأسرع عدد من الجنود والضباط للانضمام إلى حركة الجهاد فكان قادة حركة المقاومة أتراكاً عثمانيين، وكذلك معظم التمويل والأسلحة. فكان من هؤلاء الضباط أنور بك الذي تولى قيادة العمليات العسكرية في طرابلس الغرب. وخليل بك قائد منطقة الخمس وكان من هؤلاء الأتراك المتطوعين ((Turkish Volunteers)ضباط عرب من أمثال: عزيز علي المصري (قائد دور بنغازي) وأدهم باشا الحلبي (قائد دور طبرق)، ومحمود باشا اليمني (قائد منطقة زواره). وتولوا تدريب المجاهدين الليبيين على قواعد الحرب الحديثة [4].

تمركزت القوات الإيطالية يوم 5 أكتوبر من نفس العام في ضواحي طرابلس وأخذت تبني مواقعها الدفاعية في عدة مناطق منها بومليانه حيث سيطرت على موارد المياه هناك ثم قرقارش والهاني الذي يعتبر موقعا إستراتيجيا فهو عبارة عن جبل يبلغ ارتفاعه نحو 180 قدم فوق سطح الأرض تحيط به واجهه من أشجار النخيل من كافة الجهات.

ولتجنب غارات المجاهدين أحاطت القوات الإيطالية مدينة طرابلس بالأسلاك الشائكة وأستمر الوضع قائماً حتى وصول الإمدادات من القوات البرية التي بلغت نحو عشرين ألف تحت قيادة الجنرال كارلو كانيفا يومي 11 – 12 من أكتوبر 1911 م. فوجه كانيفا نداء للشعب الليبي جاء فيه:- أن هدف إيطاليا القضاء على الحكم العثماني وحماية الليبيين من كل اعتداء خارجي وأستشهد بالآيات القرآنية وبأن الاحتلال الإيطالي لليبيا هو قضاء وقدر وبالتالي لا لزوم للمقاومة! فهل انطلت على الشعب العربي الليبي أكاذيب الغزاة؟

ثانياً : مؤتمر العزيزية ومعارك الجهاد الأولى 1911- 1912 م

أمام المستجدات لواقع الاحتلال الإيطالي عقد أعيان المجاهدين ونشأت باشا يوم 6 أكتوبر 1911 م مؤتمر عام في العزيزية تم الاتفاق فيه على إرسال برقية إلى الحكومة العثمانية تؤكد على تصميم الليبيين على مواصلة الجهاد ضد المحتلين الإيطاليين وتعيين نشأت باشا قائد عام للقوات التركية والمجاهدين.

شكلت حركة المجاهدين خط دفاع أول بدأ من منطقة سواني بن يادم وقصر بن غشير ثم امتد غرباً حتى جنزور وشرقاً حتى تاجوراء وباشرت هجومها يوم 23 أكتوبر 1911 م على القوات الإيطالية المتمركزة في سواني حلاب والحمامجي في الجهة الغربية من مدينة طرابلس. وبعد ثلاثة أيام جرت معركة الهاني التي كانت عبارة عن ثلاثة معارك كما يلي:-

1- معركة الهاني- شارع الشط أكتوبر 1911 م

نشبت هذه المعركة في 23 أكتوبر 1911 واستمرت أحداثها لمدة ثلاثة أيام وكانت أولى المعارك التي دارت في معركة الهاني (شرقي مدينة طرابلس) حيث يوجد الآن النصب التذكاري لشهداء معركة الهاني.

تعد هذه المعركة من المعارك الكبرى التي شنها المجاهدون ضد القوات الإيطالية فكبدتهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد حيث بلغ عدد القتلى نحو ثلاثمائة وثماني وسبعين قتيلاً و مائة وخمسة وعشرين جريحاً. وكرد فعل لأحداث هذه المعركة أمر كانيفا قواته بالانتقام والتنكيل بالمواطنين الليبيين المدنيين فقتلت ما يزيد على الثلاثة آلاف وتحولت واحة طرابلس إلى مجزرة ضد المواطنين وأصبحت شبه خالية من الأحياء. لكنها كانت مزروعة بالجثث في كل مكان.

2- معركة الهاني- ابو مليانه

هي ثاني المعارك من سلسلة معارك الهاني نشبت في 26 أكتوبر 1911 بين قوات المجاهدين وبين قوات الاحتلال الإيطالي. وقد حقق المجاهدون بعض الانتصارات فاوقعوا عدد من القتلى والجرحى في صفوف العدو.

3- معركة الهاني- سيدي المصري:-

هذه المعركة هي ثالث المعارك من سلسلة معارك الهاني. حيث وقعت في منطقة سيدي المصري ودارت رحاها يوم 26 أكتوبر 1911 م بين المجاهدين الذين بلغ عددهم نحو 700 مجاهد [5]، وبين المحتلين الإيطاليين وقد شاركت القوات العثمانية في هذه المعركة إلى جانب المجاهدين وتمكنت قواتهم المشتركة من طرد القوات الإيطالية المحتلة من قصر الهاني الذي كانت قد تحصنت فيه.

أمام شدة المقاومة لجأت قيادة القوات الإيطالية إلى استخدام الطائرات والمناضيد في الحرب ضد المجاهدين. فقد سجل التاريخ أول غارة جوية كانت يوم 1 نوفمبر 1911 م تحمل أربعة قنابل كروية تم إلقائها لأول مرة على مخيمين للمجاهدين الليبيين في عين زاره و تاجوراء[6].

وفي صبيحة يوم 4 ديسمبر من نفس العام كانت معركة عين زاره، وتمكنت القوات الإيطالية من احتلال قرقارش بعد ثلاثة أيام من ذلك، كما جرت خلال هذه الفترة عدة معارك على امتداد مناطق الساحل الليبي. ففي 27 فبراير 1912م جرت معركة المرقب الأولى (غربي الخمس)، كما نشبت معركة لبدة يوم 2 مايو من نفس العام وكانت من أهم المعارك معركة سيدي عبد الجليل في مدينة طرابلس يوم 8 يوليو من نفس العام وفي اليوم التاسع كانت معركة مصراته حيث قام الأسطول الايطالي بدك المدينة لحماية قواته المتقدمة نحوها وبالرغم من استماتة المجاهدين في الدفاع غير أنهم لم يتمكنوا من صد القوات الغازية والمدججة بالأسلحة النوعية مما أدى إلى استشهاد نحو ثلاثمائة من هؤلاء المجاهدين[7] وكانت بعد ذلك معركة المرقب الثانية التي حشد لها الإيطاليون نحو

عشرة آلاف جندي لطرد المجاهدين عن مرتفعات المرقب ودار القتال في هذه المعركة وجهاً لوجه واستخدم السلاح الأبيض وانتهى الأمر بارتداد القوات الإيطالية بصفة مؤقتة [8].

وفي المنطقة الشرقية دارت عدة معارك منها: السلماني، قاريونس، اللثامة، الصابري، البركة وسواني عبد الغني (النخلتين) وفي هذه المعارك التي حدثت فيما بين عامي 1911 – 1912 م أستشهد كثير من المواطنين والمجاهدين، كما فقد الغزاة الإيطاليين آلاف القتلى.

وهكذا احتلت القوات الإيطالية بقوة الأسطول البحري والقوات البرية وبإمكانات مادية ضخمة، المدن الساحلية في تواريخ مختلفة خلال أكتوبر 1911 حتى أكتوبر 1912 م لكنها عجزت تلك القوات عن التقدم للداخل لشدة المقاومة الليبية والمقاتلين الأتراك العثمانيين جنود وضباط.

وخلال السنة الأولى من الاحتلال الإيطالي لليبيا تم أسر ونفي نحو 6,000 ليبي إلى الجزر الإيطالية ولم يرجع منهم إلا القليل [9].

ثالثا: معاهدة أوشي لوزان 18 أكتوبر 1912 وأثرها على حركة الجهاد الليبي

أمام شدة حركة الجهاد الليبي، لجأت الحكومة الإيطالية للضغط على الحكومة العثمانية حتى تتخلى لها عن ليبيا، فنقلت عملياتها الحربية إلى الدردنيل وبحر إيجة لممارسة الضغوط على الحكومة العثمانية لإجبارها على توقيع معاهدة تنازل عن ليبيا وتعاونت معها في هذا المجال العديد من الدول الأوروبية منها: الحكومة البريطانية، فرنسا، روسيا، النمسا وألمانيا.

هذه الضغوط أجبرت السلطان محمد رشاد خان إلى إصدار فرمان في 16 أكتوبر 1912 م، يقضي باستقلال ليبيا ذاتياً، مقابل دفع الحكومة الإيطالية تعويضاً مالياً للسلطان مقداره ألف مليون ليرة.

تبع ذلك مفاوضات بين الجانبين أدت إلى توقيع معاهدة أوشي (لوزان) بسويسرا في 18 نفس الشهر اشتملت على عدة نصوص منها [10]:-

1- إنهاء حالة الحرب في ليبيا، وتخفيض الرسوم الجمركية على السلع الإيطالية في تركيا.
2- يدعى للسلطان العثماني في المساجد (داخل ليبيا) وتعترف الحكومة الإيطالية بممثل السلطان فكانت هذه هي النقطة الواهية التي تربط الدولة العثمانية بالليبيين.
3- أصدرت الحكومة الإيطالية عفواً عاماً عمن اشتركوا في الحرب ضد القوات الإيطالية من الليبيين والأتراك.

وقد وضعت بنود هذه الاتفاقية موضع التنفيذ بعد التوقيع النهائي يوم 18 أكتوبر 1912م واعترفت الدول الأوروبية بسيادة الحكومة الإيطالية على ليبيا بمجرد نشر بنود هذه الاتفاقية.

هكذا تم تنازل الحكومة العثمانية عن ليبيا للحكومة الإيطالية، وانسحبت قواتها من ميدان القتال، تاركة الشعب العربي الليبي، يواجه مصيره بمفرده مع العلم بأن زعماء البلاد ولا غيرهم من المواطنين الليبيين شاركوا في اتفاقية أوشي لوزان، ولم يؤخذ رأيهم في ذلك ولم تتح لهم فرصة المشاركة في تقرير مصيرهم مما كان له وقع شديد الأسى على نفوسهم[11] ومما زاد في دهشة أبناء ليبيا، أن الاستقلال الذاتي الذي منحه السلطان العثماني (محمد رشاد خان) لليبيا، جاء متناقضاً مع واقع الأمر، لأن القوات الإيطالية كانت تحتل الساحل الليبي وتحاول التوغل في دواخل ليبيا.

لقد ترتب على هذه الاتفاقية عدة أثار سلبية على حركة الجهاد الليبي، فانعكست هذه الآثار بشكل واضح على الوضع السياسي والعسكري في ليبيا. فتطبيقاً لبنود هذه الاتفاقية أنهت الحكومة العثمانية حالة الحرب ضد إيطاليا وأمرت بانسحاب قواتها العسكرية وجهازها الإداري من ليبيا مما ترتب عليه المشاكل التالية:

أ- انقطاع الإمدادات العسكرية والمؤن التي كانت ترد من الحكومة المركزية في استانبول.

ب- أصبح هناك نقص في عدد المقاتلين، الأمر الذي أثر في قوة المجاهدين وأضعف من معنوياتهم.

ج- إحداث فراغ سياسي وإداري داخل البلاد، مما فتح المجال أمام ظهور وتعدد زعامات محلية والصراع على السلطة، أدى إلى تصدع الجبهة الداخلية خاصة في المنطقة الغربية من ليبيا.

أما النتائج التي ترتبت على انسحاب القوات العثمانية من ليبيا فكان أهمها ما يلي:-

1- أصبح الجهاد في ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي ليبيا خالصاً.

2- ظهور وتبلور ما يمكن أن نطلق عليه اسم تيار الصمود والتصدي، الذي أعطى حركة الجهاد صفة الاستمرارية والديمومة.

3- انتظمت حركة الجهاد الليبي في جبهتين هما: الجبهة الغربية والجبهة الشرقية.

4- انعقاد مؤتمر العزيزية في نوفمبر 1912 لمناقشة الوضع الراهن، حيث ضم بعض زعماء المجاهدين وأعيان ومشايخ القبائل من أمثال سليمان الباروني، محمد عبد الله البوسيفي، محمد فرحات الزاوي، أحمد المريّض، الهادي كعبار، مختار كعبار، محمد سوف، الساعدي بن سلطان، علي بن تنتوش وبشير السعداوي [12].

وأنقسم هذا المؤتمر إلى فريقين: الأول يدعو للتفاوض مع القوات الإيطالية، والآخر يدعو إلى مواصلة القتال، وإنتصر رأي الفريق الآخير.

5- بدأت أحوال المجاهدين تسوء بسبب ما كانوا يعانونه من قلة الموارد والنقص المتزايد في الذخيرة.

رابعاً: محاولة القوات الإيطالية التوغل في الداخل

بادرت سلطات الاحتلال للتوغل في المناطق الداخلية فاستولت على سواني بنيادم والعزيزية وبن غشير خلال أيام (15، 16، 17) من نوفمبر 1912 م ثم واصلت زحفها من قواعدها في زوارة نحو رقدالين، زلطن. ومن الخمس نحو سوق الخميس ومن مصراتة نحو زليتن وتاورغاء.

وعندما كانت القوات العثمانية تغادر ليبيا في مستهل شهر ديسمبر من نفس العام، تمكنت القوات الإيطالية خلال الشهر ذاته من احتلال العجيلات يوم 3 والزاوية يوم 4، وغريان يوم 8 ونزلت تلك القوات على بني وليد ووقفت عند هذا الحد [13].

معركة جندوبة:-

لم تستطع تلك القوات، التوغل في منطقة الجبل الغربي، لشدة المقاومة، حيث اصطدمت بقوات المجاهدين، فحدثت معركة جندوبة (الأصابعة) بجنوب غريان يوم 23 مارس من نفس العام، فكانت هذه المعركة من أعنف المعارك التي دارت بين القوات الإيطالية، والمجاهدين على جبهة تمتد بطول ثلاثمائة كيلو متر، تبدأ من العسة على الحدود التونسية غرباً، إلى منطقة الرابطة وبئر مراكم. وقد ظلت القوات الإيطالية تستعد لهذه المعركة منذ أوائل شهر مارس حتى يوم 22 منه عام 1912 م. وذلك للقضاء على قوات المجاهدين بقيادة سليمان الباروني وقد خاض المجاهدون هذه المعركة بكل شجاعة وثبات، غير أن قوتهم العسكرية والبشرية لم تمكنهم من الصمود أمام قوات العدو التي بلغت نحو أربعين ألف جندي بقيادة الكولونيل (المقدم) مياني، مزودين بمختلف أنواع الأسلحة الحديثة [14]. فاندحر المجاهدون، وأجبروا على التقهقر فتمكنت قوات العدو من احتلال منطقة الجبل الغربي في 23 من نفس الشهر.

كانت تلك المعركة خاتمة معارك المواجهات التي جرت خلال الفترة الأولى من مراحل حركة الجهاد بطرابلس (1911- 1912)، وتابعت قوات العدو زحفها بعد ذلك

في عدة مناطق بالجبل الغربي، فاحتلت ككله يوم 25 مارس ويفرن يوم 27 من نفس الشهر، ومزدة يوم 25 يوليو 1913 م.

خامساً: موقف المجاهدين بعد معركة جندوبة

أظهر الشيخ محمد البوسيفي معارضته لقيادة سليمان الباروني في معارك الرابطة والأصابعة لأنه من وجهة نظره شيخ علم ولا يصلح لقيادة المجاهدين. وإنقسم المجاهدون بعد انتصار القوات الإيطالية في معركة جندوبة إلى ثلاث فرق: فريق ظل في أماكنه واستسلم للغزاة، وفريق آخر هاجر إلى تونس واستقروا هناك، ولحق بهم من نالوت الشيخ سليمان الباروني ومحمد سوف و مجموعة من المجاهدين. فقامت سلطات الاحتلال الفرنسي بتجريد المجاهدين من كافة أسلحتهم.

لقد اتصل الكونت سفورزا (مندوب الحكومة الإيطالية في تونس) بالشيخ سليمان الباروني يدعوه للتباحث في أمر الإدارة التي قررت السلطات الإيطالية إنشاءها في طرابلس الغرب، حيث تقدم سفورزا بمشروع يقضي إصدار عفو عام عن المهاجرين الليبيين والسماح لهم بالعودة إلى بلادهم فعاد بعضهم وفضل آخرون الهجرة إلى تركيا ومنها إلى بلاد الشام وكان منهم الشيخ سليمان الباروني والشيخ محمد سوف [15].

أما القسم الثالث فقرر البقاء في أرض الوطن والدفاع عنها بالنفس والنفيس وترأس هذا القسم الشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي، والشيخ محمد الباروني، اللذان جمعا شتات المجاهدين وتوجها بهم نحو القبلة وهي المنطقة التي تبدأ من الحمادة الحمراء إلى بني وليد وقاعدتها القريات. وقد تمركزوا بوادي الشاطئ بفزان.

المبحث الرابع

حملة مياني على فزان ومعارك الجنوب والمنطقة الشرقية

(1914 -1913)

قررت القوات الإيطالية بعد أن حققت انتصارا في معركة جندوبة، ملاحقة المجاهدين لاستكمال الاحتلال. وكان أمام هذه القوات المتواجدة في سرت للزحف على منطقة فزان طريقان:-

أولهما: الزحف عن طريق منطقة القبلة إي مزدة، القريات، الشويرف، ومنها إلى براك.

وثانيهما: الزحف من سرت التي كانت القوات الإيطالية قد إحتلتها في 3 ديسمبر 1913م. ومنها إلى الجفرة (ودان، هون، سوكنة) ثم تعبر تلك القوات منطقة جبل السودة إلى سرير القاف ومنها إلى براك الشاطيء (شمال فزان) [16]

بعد أن استكملت القوات الإيطالية استعداداتها بقيادة الكولونيل مياني حيث بلغ تعدادها نحو 1200 جندي مع كتيبتين أرتيريتين ومجموعتين من المدفعية وفصيلة خدمات وسبع محطات تلغراف وقافلة كبيرة من الإمدادات.

تركت هذه الحملة العسكرية الطريق الأول وهو الأقصر على أساس أنه طريق غير آمن يقطنه قبائل مرتحلة، لا تقبل الخضوع ولا تستقر على حال كما أنها تميزت بقوة المراس وشدة البأس.

لذلك اختارت الطريق الآخر فانطلقت من قاعدتها (سرت) يوم 6 أغسطس 1913م باتجاه منطقة الجفرة فوصلت سوكنة يوم 22 من نفس الشهر وتمكنت من احتلالها وأقامت فيها مدة حوالي ثلاثة أشهر للاستعداد والمراقبة. وفي يوم 6 ديسمبر من نفس العام تحركت من سوكنه عبر جبل السودة متجهة إلى براك الشاطئ مركز تجمع المجاهدين، اللذين انسحبوا عقب معركة جندوبة وأنضم إليهم جماعات من أهالي منطقة الشاطيء (حساونه، مقارحة، قوايدة... إلخ).

أولاً : أهم معارك الجنوب (الشب، أشكدة والمحروقة)

1- إشتباك الشب (ديسمبر 1913)

تقع منطقة الشب إلى الشرق من براك الشاطئ بحوالي أربعين كلم. فكان أول صدام بين القوات الإيطالية الزاحفة نحو الجنوب وقوات المجاهدين في هذه المنطقة يوم 10 ديسمبر 1913 م، حيث إشتبكت قوات مياني بمفرزة (كمين) استطلاع للمجاهدين كان يراقب تحركات العدو فاستشهد جميع أفرادها باستثناء واحد منهم رفض الاشتراك في معركة قتال غير متكافئة، وطلب من المفرزة الانسحاب ليبلغوا قيادة المجاهدين برئاسة الشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي، وسكان المنطقة بقدوم القوات الايطالية الزاحفة. لكن دون جدوى فرجع هذا الشخص بمفرده إلى براك وأبلغ الجميع بما حدث.

معركة أشكدة 12 ديسمبر 1913 م

تقع بلدة أشكدة إلى الشرق من براك بحوالي عشرين كم. وهي أول تجمع سكاني في وادي الشاطئ من جهة الشرق وبعد اشتباك الشب تابعت القوات الإيطالية زحفها باتجاه آبار آشكده يوم 12 ديسمبر من نفس العام، وطلب مياني من الأهالي التسليم غير أن المجاهدين ومعهم الأهالي رفضوا ذلك وقرروا القتال والمواجهة.

وفي صبيحة اليوم التالي (13 من نفس الشهر) قامت القوات الإيطالية بقصف مدفعي لتدمير مواقع المجاهدين، اللذين شكلوا خطاً (دفاعياً إلى الغرب من هذه البلدة في مرتفع دبدب المشرف على طريق أشكدة – براك) من الجهة الشمالية الغربية.

ثم تابعت قوات مياني زحفها تجاه المجاهدين اللذين تصدوا لهذا الزحف بكل شجاعة، فلم تتمكن تلك القوات من اختراق تحصينات المجاهدين. فلجأ مياني إلى حيلة وهي استدراجهم بعيداً عن تحصيناتهم، فانسحب بقواته جنوباً تجاه رمله الزلاف، موهماً المجاهدين بأنه يريد الزحف إلى سبها.

اعتقد المجاهدون أن قوات مياني قد هزمت فاندفعوا لمطاردتهم، وعندما وصل المجاهدون إلى منطقة مكشوفة، أخذت القوات الإيطالية في قصفهم بكافة أنواع الأسلحة

مما أجبرهم على التراجع إلى بلدتي قيرة وبراك بعد أن تكبدوا خسائر عديدة من الشهداء. فتقدمت القوات الإيطالية لاحتلال براك وانتهت بذلك معركة أشكدة لصالح العدو.

2- **معركة محروقة** 24 **ديسمبر** 1913

تحركت قوات مياني من براك بقوة تتألف من 789 جندي وإثنا عشر قطعة مدفعية ورشاشين بعد أن ترك حامية في براك مع عدد من قوات الاحتياط [17].

واصلت تلك القوات زحفها فاقتحمت مرتفعات المحروقة ودارت معركة طاحنة يوم 24 ديسمبر 1913 م بين قوات المجاهدين بزعامة محمد بن عبد الله البوسيفي والتي بلغت نحو 500 مجاهد وبين القوات الإيطالية واستمرت المعركة ما يزيد على الخمس ساعات تمكنت بعدها القوات الغازية من تحقيق النصر واستشهد عدد كبير من المجاهدين ومنهم الشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي.

ترتب على معركة محروقة، احتلال قوات مياني للمناطق القريبة منها في وادي الشاطيء دون مقاومة تذكر تم تقدمت تلك القوات إلى سبها فاحتلتها يوم 17 فبراير 1914 م دون مقاومة وأتخذ مياني من قلعة قاهره مركزاً لقيادته السياسية والعسكرية. وبعد استراحة استمرت عشرة أيام، زحفت قواته إلى مرزق فاحتلتها يوم 4 مارس كما احتلت اوباري وادري في يوليو واتجهت جنوب غات فاحتلتها يوم 21 أغسطس من نفس العام. وهكذا استكملت القوات الإيطالية احتلال فزان بالكامل.

ثانياً: معركة قاهرة 27 - 28 نوفمبر 1914 م

القاهرة ربوة عالية بسبها، في رأسها قصر قديم يقال أنها كانت في التاريخ القديم مقر ابن جهيم وأبن المنتصر. وهي أحدى قرى سبها ولأهميتها اتخذتها القوات الإيطالية حصناً لها بعد احتلالها لفزان كما سبق القول – فأحاطوها بسياج من المدافع والأسلاك الشائكة واتخذوها مستودعاً حربياً، استمر احتلالهم لها نحو تسعة أشهر.

وفي مساء 27 نوفمبر 1914 م، قام سالم بن عبد النبي الزنتاني بمهاجمة قلعة قاهرة على رأس عدد من الرجال، لا يزيد عددهم عن أربعين مجاهداً، لا يملكون إلا بضع بنادق تركية وبنادق إيطالية غنموها في معارك سابقة. مقابل إمكانيات القوات الإيطالية الضخمة في العدد والعتاد والإمكانات.

وعلى الرغم من إن المعركة لم تكن متكافئة بين الجانبين، إلا أن خطة قوات المجاهدين التي اعتمدت إستراتيجية ألمباغته ليلاً فأصبحت القلعة مع فجر يوم 28 من نفس الشهر في حالة تطويق كامل وتم اقتحامها في الساعة الرابعة صباحاً، بعد أن وجد المجاهدون تعاوناً وثيقاً من العناصر الليبية المجندة مع القوات الإيطالية الضخمة في العدد والعتاد والإمكانات. فتمت إبادة معظم أفراد الحامية [18].

وغنم المجاهدون كميات ضخمة من المدافع والرشاشات وصناديق الذخيرة وغيرها من المعدات. بدأت بعد هذه المعركة عملية استرداد لكافة المناطق الجنوبية، فتم تحرير أوباري واندلعت ثورة في كامل مناطق فزان وعجزت القوات الإيطالية عن إخمادها ولم يبق أمام الجنرال مياني إلا الانسحاب من مدينة مرزق عاصمة فزان وتم ذلك في 10 ديسمبر 1914 م حيث انسحب في ست سيارات إلى سوكنة، ثم من أبو نجيم بعد أن تعرضت القوات الإيطالية لهجوم عنيف وتركت حامية أوباري تواجه مصيرها. أمام حصار المجاهدين، وأصبحت قوات المجاهدين تلاحق القوات الإيطالية في كل أماكن تواجدها.

عاد مياني إلى طرابلس ووضع خطة عسكرية تهدف إلى استعادة السيطرة على مناطق القبلة ومنطقة سرت اللتان انفجرت فيهما الأوضاع ضد الاحتلال الإيطالي. فكانت هذه الخطة تقضي بتوجيه حملتين كبيرتين واحدة للعمل جنوب مزدة والأخرى للعمل في منطقة سرت.

اصطدمت القوات الإيطالية بقوات المجاهدين في المعركة الشهيرة المعروفة بمعركة وادي مرسيط يومي 6-7 من ابريل 1915 م. وانتهت بهزيمة ساحقة للقوات الإيطالية

سقط فيها نحو مائة قتيل. فكانت مبعث شؤم للقوات الإيطالية التي سوف تلاقي نفس المصير في معارك قادمة.

أما بالنسبة لحركة المقاومة الوطنية في المنطقة الشرقية (منطقة برقة) في تلك الفترة فعلى الرغم من علم قيادة المجاهدين باتفاقية أوشي لوزان السابقة ذكرها، وبقرار الحكومة العثمانية بانسحاب حاميتها من البلاد إلا أنهم لم يكترثوا بذلك وقرروا دون تردد مواصلة الجهاد.

فقد كانت القيادة في هذه المنطقة متمثلة في الشيخ أحمد الشريف الذي كان يدين له بالولاء كافة رؤساء ومشايخ العشائر والقبائل. ولم يكن له إرتباط رسمي بالسلطات العثمانية مثلما كان لأغلب القيادات في طرابلس. أما عن قائد الحامية العثمانية لتلك المنطقة فقد كان أنور باشا قبل مغادرته ليبيا توجه إلى الشيخ أحمد الشريف الذي كان مقيماً في واحة الجغبوب، وسلمه مقاليد البلاد. واستبقى مجموعة من ضباطه برئاسة عزيز علي المصري. لقيادة قوات المجاهدين وانضم إليهم مجموعة من الضباط الأتراك اللذين رفضوا الانصياع لأوامر حكومتهم وقرروا البقاء في برقة للاشتراك في عمليات القتال.

لقد حاول مخططو العمليات العسكرية الإيطالية، وضع خططهم للقضاء على حركة الجهاد في منطقة برقة، فقاموا بعدة عمليات عسكرية في وقت واحد في جنوب وشرق بنغازي والنزول في أحد مرافئ الجبل الأخضر، وتحريك قواتهم المرابطة في درنة، نحو الجبل الأخضر قبل أن يستفحل خطر المجاهدين.

فنزلت قواتهم يوم 11 ابريل 1913 م في طلميثة، واتخذت منها قاعدة لغزو الجبل الأخضر. ونشبت في ذات الوقت معركة الهوا ري في 12 مارس في نفس العام، ومعركة بنينه المشهورة يوم 13 من ذات الشهر وهي من المعارك العنيفة التي وقعت في بنغازي واستمرت المواجهة المسلحة ما يزيد على خمس ساعات مما أدى إلى تدمير مدينة بنينة وأشعلت القوات الايطالية النار فيها.كما وقعت معركة سيدي القرباع بالقرب من درنة يوم الجمعة 10 مايو 1913 م، حيث حقق المجاهدون فيها انتصارا ساحقاً على القوات الإيطالية.

المبحث الخامس

معركة القرضابية، أسبابها، إحداثها ونتائجها

القرضابية بئر يقع شرقي مدينة سرت على مسافة قريبة من قصر أبو هادي (جنوب شرق سرت). والمنطقة عبارة عن أطلال قديمة. وقعت هذه المعركة في المسافة بين القرضابية وبين قصر أبو هادي، لكن اسم القرضابية غلب على المعركة لأن وطيس المعركة حمي وأشتد عند بئر القرضابية، واستمر القتال أكثر فيها من قصر أبو هادئ.

تعتبر معركة القرضابية من المعارك المتميزة والشهيرة في حركة الجهاد الليبي فلقد مثلت بالنسبة لمن تناولها من الإيطاليين هزيمة مروعة، فوصفوها في وثائقهم باسم عدوة طرابلس، لأن نتائجها تشابهت بما لحقت بقواتهم في معركة عدوة بالحبشة في مارس 1896م، حيث ألحق الأحباش في هذه المعركة هزيمة نكراء بالقوات الإيطالية سقط فيها نحو ستة آلاف إيطالي بين قتيل وأسير و أوقفت الحكومة الإيطالية مشاريعها الاستثمارية في الحبشة حتى عام 1933م، وخرج رئيس وزراء إيطاليا كريسبي Crispi)) على أثرها من الحكم.

أسباب معركة القرضابية

تعددت الأسباب والعوامل التي أدت إلى قيام هذه المعركة، منها الأسباب الداخلية ومنها الأسباب الخارجية ويمكن إجمال تلك الأسباب كما يلي:-

1- الموقع الجغرافي الذي تتمتع به هذه المنطقة باعتبارها تشكل قاعدة مهمة على الساحل الليبي ومفتاحاً للمناطق الداخلية في فزان والواحات، وقاعدة مهمة للعمليات العسكرية. فهي تمثل نقطة ارتكاز في الإستراتيجية العسكرية، ونقطة تجمع أو شريان حيوي بالنسبة للشرق والغرب الليبي. أما بالنسبة للاحتلال الإيطالي فإنها بؤرة للمقاومة أحالت حياة جنوده إلى الجحيم، وألهبت روح الثورة في كل مناطق ليبيا.

2- الانتفاضة الشاملة، التي قلصت النفوذ الإيطالي في حيز صغير ومحدود لا يتعدى خط سرت ومصراته وبني وليد وعلى طول سلسلة الجبل الغربي بما في ذلك غدامس ومزده.

3- تحفز المجاهدين للانتفاضة في مواجهة هذا الخط الذي كان يمثل أقصى امتداد للنفوذ الإيطالي نحو الجنوب، فقد تواجد المجاهدون في عدة مناطق في قصر أبو هادي وجنوب مصراته وسلسلة الجبل الغربي حتى غدامس.

4- رغبة القوات الإيطالية في توجيه ضربة قاصمة لليبيين لاسترداد مكانتها العسكرية أمام الدول الأوروبية وخدمة للأغراض التالية:-

أ. رفع معنويات الجنود الايطاليين في الساحة الإيطالية، الذي أصبح يتلقى أنباء هزائم قواتهم في ليبيا، مما أثر سلبياً على معنوياتهم.

ب. تثبيت الوجود الإيطالي الاستعماري على الأراضي الليبية.

ج. نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول إيطاليا إلى جانب الحلفاء لتحقيق مصالح مشتركة والثأر من النمسا التي كانت لا تزال تحتل مناطق إيطاليا.

الإعداد لمعركة القرضابية

عاد العقيد مياني من روما بعد تدارس الأوضاع لإعداد حملة عسكرية دون مطالبة الحكومة المركزية بجنود جدد. وبدأ في الإعداد لحملة القرضابية حيث كانت سرت مركز تجمع المجاهدين. وقد اشتملت في مجموعها على أكثر من ستة ألاف مسلح، 250 فارس عدا المدفعية وقوافل الإمدادات وكانت تلك القوات خليط من الإيطاليين والأحباش والاريتريين والمجندين الليبيين الذين جندتهم السلطات الإيطالية من مصراتة وترهونة وزليطن وورفلة[19].

خط سير الحملة

تحركت القوات الإيطالية بقيادة الجنرال مياني من مصراتة في شهر ابريل 1915 م، وتمركزت في القداحية ثم تحركت من قواعدها هناك يوم 24 من نفس الشهر، فاشتبكت

في معركة قصيرة مع طلائع المجاهدين عند أبي شناف ثم واصلت زحفها تجاه القرضابية حيث كانت ترابط قوى المجاهدين.

وما كادت القوات الإيطالية تصل إلى القرضابية يوم 28 من نفس الشهر، حتى بادرها المجاهدون بالهجوم وركزوا هجومهم على الجناح الأيسر الذي كان يتكون من المجندين الليبيين اللذين سرعان ما انضموا إلى قوة إخوانهم المجاهدين وإلتفوا على القوة الإيطالية بكل ثقلهم.

مما أوقع بالقوات الإيطالية خسائر فادحة فقد بلغ عدد القتلى نحو 500 قتيل و 462 جريح كما سقط في هذه المعركة 18 ضابطاً وجرح منهم 25 كان من بينهم العقيد مياني نفسه، وفقدت الحملة كل ذخائرها ومعداتها فقد غنم المجاهدون ألف بندقية و11 قطعة مدفعية وعدد من الرشاشات وكميات من المؤن والذخائر، كانت لهم خير عون في معاركهم بعد ذلك ضد هؤلاء المحتلين، وسجلت هذه المعركة أُفول نجم مياني ونهايته على مسرح العمل العسكري الإيطالي.

نتائج معركة القرضابية على المستويين الوطني والدولي

1- إذكاء روح المقاومة الوطنية التي انتشرت في كافة أنحاء البلاد.
2- حصول المجاهدين على أعداد كبيرة من المعدات والأسلحة والغنائم الأخرى.
3- انسحاب القوات الإيطالية من كافة المناطق الداخلية واقتصارها على المدن الساحلية وتكدسوا في حلقة ضيقة من الأسلاك الشائكة.
4- تعزو المصادر الإيطالية مسؤولية الهزيمة إلى انقلاب المجندين الليبيين في اللحظة الحاسمة، وينسبون هذه الهزيمة إلى رمضان السويحلي.
5- توحدت في هذه المعركة لأول مرة القوى الوطنية في شرق البلاد وغربها.
6- مثلث هذه المعركة الشرارة الأولى في مرحلة حركة التطهير التي عمت بعد ذلك جميع أجزاء ليبيا وأخذت في محاصرة الحاميات والقوات الإيطالية.
7- كان لمعركة القرضابية صدى واسع في الأوساط الدولية، حيث أثارت تلك الهزيمة السخرية من الحكومة الإيطالية خاصة في أوساط الحلف الثلاثي:

(إيطاليا، ألمانيا، النمسا). أما بالنسبة لحكومتي بريطانيا وفرنسا فقد زعزعت هذه الهزيمة ثقتها بحليفتهما إيطاليا. ونشرت الصحافة العالمية، ما تكبدته الحكومة الإيطالية من خسائر في الأموال والأرواح.

8- حملت الحكومة الإيطالية العقيد مياني، مسؤولية ما لحق بها من هزيمة في معركة القرضابية.

9- بدلت الحكومة الإيطالية قصارى جهدها لتلفت انتباه شعبها نحو حروب أوربية كي تلهيها عن شبح هزيمة القرضابية.

10- قيام الجمهورية الطرابلسية في 16 نوفمبر 1918 م أول جمهورية في تاريخ الوطن العربي المعاصر.

11- كان لانتصار المجاهدين في معركة القرضابية أثره الكبير في إشعال الانتفاضة في الجنوب التونسي ضد الاحتلال الفرنسي، فأمدهم الليبيون بالسلاح واشتركوا معهم في عدة معارك. كما شارك التونسيون في معارك وطنية داخل التراب الليبي.

12- هبت الحركة الوطنية في مصر، لتحرك قوات أحمد الشريف على حدود مصر ومهاجمة القوات البريطانية.

13- اقتنعت الحكومة الإيطالية بعدم جدوى العمل العسكري المباشر فلجأت إلى الطرق السياسية الخبيثة، بإتباع سياسة فرق تسد (divide and rule)، وعملت على إثارة الفتن والانشقاق بين صفوف الزعماء واستمالة بعض العناصر.

14- أثارت هذه المعركة ردود فعل في أوساط الحكومة الإيطالية، وتم تشكيل لجنة عليا لبحث أسباب الهزيمة.

هوامش الفصل السادس

1- رفعت عبد العزيز، الجهاد الليبي في عشر سنوات 1912-1922، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة،1982، ص 103.

2- خليفة محمد التليسي،معجم معارك الجهاد في ليبيا،1911-1931، ليبيا -تونس الدار العربية للكتاب،1980، ص455.

3- الطاهر أحمد الزاوي، مرجع سابق، ص 198.

4- مركز دراسة جهاد الليبيين، قصة جهاد الليبيين ضد الاستعمار الايطالي،، 1911-1943، جمع وتحقيق حبيب وداعة الحسناوي، طرابلس، 1988، ص 33

5- باولو مالتيزي، ليبيا أرض الميعاد، تعريب: عبد الرحمن العجيلي،طرابلس، منشورات مركز جهاد الليبيين،،ط2,1992، ص 150-151،وأنظر أيضا عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، تعريب:عبد السلام أدهم، بيروت، دار لبنان للطباعة والنشر، ط1,1969، ص 215.

6- عزيز سامح، مرجع سابق، ص 224.

7- إبراهيم سليمان الضراط، جهاد ليبيا الدبلوماسي فب أروقة الأمم المتحدة، ط1، مصراته، دار المنار للطباعة والاعلان، 2012، ص 31.

8- قصة جهاد الليبيين، مرجع سابق، ص 66-67.

9- مصطفى حامد رحومة، مرجع سابق، ص158.

10- قصة جهاد الليبيين، مرجع سابق، ص120-127.

11- الطاهر أحمد الزاوي، مرجع سابق، ص 124.

12- عقيل محمد البربار، مرجع سابق، ص 118.

13- مصطفى حامد رحومة، مرجع سابق، ص330.

14- الطاهر أحمد الزاوي، مرجع سابق، ص 157-160.

15- المرجع نفسه، ص 616.

16- بحوث ودراسات في التاريخ الليبي، مرجع سابق، ص101-102.

17- أحمد عطية مدلل، مقاومة الليبيين ضد الاستعمار الايطالي، مجلة الشهيد، طرابلس العدد الثالث، ص 47.

18- المرجع نفسه، ص31.

19- بحوث ودراسات في التاريخ الليبي، مرجع سابق، ص140.